

محطّات تاريخية حول الانتقال السياسي للجزائر من الحكم الزيّاني إلى النظام العثماني

د. الحاج موسى به عمم
أستاذ محاضر أ
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

ملخص الدراسة

تبحث هذه الدراسة في الظروف التي شهدتها منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وترصد الإرهاصات التي مهّدت للانتقال السياسي في الجزائر الذي جاء نتيجة تداعي نظام الحكم الزيّاني وعدم قدرته على مواجهة الأطماع الإسبانية الصليبية من جهة؛ والحضور القويّ والفعال للنفوذ العثماني إلى مياه البحر الأبيض المتوسط، بعد تقلّد السلطان سليم الأول زمام الحكم في إسطنبول من جهة أخرى.

وتتبع الدراسة بالتالي أهمّ الأحداث التي رافقت الانتقال السياسي للجزائر من عهد دولة بني زيان إلى عهد جديد كانت فيه الجزائر تحت نفوذ الحكم العثماني. والهدف المتوخى من هذا البحث هو الوقوف عند اللحظات الحرجة والحاسمة التي عاشتها الجزائر وسكانها ونخبها السياسية والاجتماعية لإبلاغ هذه البلاد ومن عليها من العباد إلى برّ الأمان، وتجنّبها تكرار تجربة ضياع بلاد الأندلس قريّة العهد وما صاحب ذلك من مآسي وجرائم وحشية لا إنسانية.

والتساؤلات التي تطرح نفسها في هذا السياق هي: كيف جرى انتقال نظام الحكم في الجزائر من أيدي ملوك بني زيان بتلمسان إلى أيدي النظام الدولة العثمانية في إسطنبول؟ ومن أين استمدّ النظام العثماني الجديد شرعيته وفاعليته في الساحة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بالجزائر؟ وما هي ردّة فعل الإمبراطور الإسباني ومن سار في فلكه من الحلفاء والعملاء؟ وما هي الأحداث التي صاحبت هذه التطوّرات التاريخية؟

الكلمات المفتاحية: الجزائر؛ مرغنة؛ الحكم الزيّاني؛ النظام العثماني؛ القرن السادس عشر الميلادي؛ البحر الأبيض

المتوسط

مقدمة

المقاومة المحليّة وغياب السلطة الزيانية التي انحصرت في مدينتي الجزائر وتلمسان، تلك السلطة التي أعلن حكامها بدورهم التبعية للإسبان، وبعد أن عانى سكان بجاية وشرق الجزائر من اعتداءات الإسبان، كان ضروريا من ظهور قوّة جديدة تقوم بواجب التحرير ضد الاحتلال.¹

وإلى سنة 1501 لم يستول الإسبان إلا على مدينة مليلية المغربية. غير أن ثورة المورسكين في جبال البشرات أعطت الذريعة لمتعصبي الكنيسة الكاثوليك لتحرير العرش الملكي على غزو بلاد المغرب الكبير؛ إذ في ظرف ست سنوات ابتداء من 1505م استطاع الإسبان أن يحتلوا أهم المدن الساحلية بالشمال الإفريقي. ويؤكد المؤرخون الإسبان أن دوافع احتلال سواحل بلاد المغرب كانت دينية أساسا، وأن الرغبة في نشر المسيحية في تلك البلاد هو ما حرّك الملكة إيزابيلا والملك فيرناندو الكاثوليكين على التوجّه نحو ما يسمى بالسياسة الإفريقية.²

وفي هذه الأثناء ظهر الإخوة بربروس³ الذين كانوا سيضطلعون بدور هامّ في توجيه العلاقات في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بين بلدان المغرب الكبير وإسبانيا؛⁴ حيث ساد الغموض مستقبل المنطقة، وبرز البحار بابا عروج⁵ وأخوه خير الدين⁶ وإسحاق الذين انضم إليهم العديد من السكان والمهاجرين الأندلسيين وشكّلوا قوّة بحرية هامة، وسعوا إلى السيطرة على البحر المتوسط.⁷

ولقد سعى الإسبان إلى الاستيلاء على جزيرة جربة التونسية، فهاجمها القائد البحري بيدرو نافارو بأسطول قوامه مائة وعشرون سفينة وبتعداد جيش قدره عشرون ألف مقاتل، فاستطاع الإنزال على سواحل الجزيرة في 24 جمادى الأولى 916هـ/ 1510م، لمواجهة السكان الذين لا يتجاوز القادرون منهم على المقاومة الثلاثة آلاف رجل.

تبحث هذه الدراسة في الظروف التي شهدتها منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وترصد الإرهاصات التي مهّدت للانتقال السياسي في الجزائر الذي جاء نتيجة تداعي نظام الحكم الزياني وعدم قدرته مواجهة الأطماع الإسبانية الصليبية من جهة؛ والحضور القويّ والفعال للنفوذ العثماني إلى مياه البحر الأبيض المتوسط، بعد تقلّد السلطان سليم الأوّل زمام الحكم في إسطنبول من جهة أخرى. وتتبع الدراسة بالتالي أهمّ الأحداث التي رافقت الانتقال السياسي للجزائر من عهد دولة بني زيان إلى عهد جديد كانت فيه الجزائر تحت نفوذ الحكم العثماني. والهدف المتوخى من هذا البحث هو الوقوف عند اللحظات الحرجة والحاسمة التي عاشتها الجزائر وسكانها ونخبها السياسية والاجتماعية لإبلاغ هذه البلاد وما عليها من العباد إلى برّ الأمان، وتجنبها تكرار تجربة ضياع بلاد الأندلس قريّة العهد وما صاحب ذلك من مأس وجرائم وحشية لا إنسانية.

والتساؤلات التي تطرح نفسها في هذا السياق هي: كيف جرى انتقال نظام الحكم في الجزائر من أيدي ملوك بني زيان بتلمسان إلى أيدي نظام الدولة العثمانية في إسطنبول؟ ومن أين استمدّ النظام العثماني الجديد شرعيته وفاعليته في الساحة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بالجزائر؟ وما هي ردّة فعل الإمبراطور العثماني ومن سار في فلكه من الحلفاء والعملاء؟ وما هي الأحداث التي صاحبت هذه التطوّرات التاريخية؟

في الوقت التي اشتدت فيه الهجمات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي بصفة عامة وعلى سواحل المغرب الأوسط بصفة خاصة، ضمن المشروع الإسباني الذي كان يهدف إلى احتلال المنطقة بسبب ضعف

وكان للشيخ باحيو بن موسى المزايي الجزائري⁸ اتصالات بالرايس عروج في تونس، وكان الشيخ وفرقته الفدائية من الفرسان المزاييين المرابطين على السواحل الجزائرية يمارسون أعمالهم الجهادية على سواحل المغرب الأدنى والأوسط، وكانت تونس إذًا يحكمها أبو زكريا يحيى السوموني⁹، ويتأسس سلطتها الروحية شيخ حلقة العزابة بها أبو النجاة يونس بن سعيد¹⁰. ولقد أسفرت هذه المقاومة عن تحطّم أسطول دون غارصيا دو طليطة¹¹.

ولقد ساهم وصول مدد الفرسان المزاييين وقائدهم في مقاومة غارة الإسبان على جزيرة جربة التونسية سنة 916 هـ / 1510م، دفاعاً عن إخوانهم في الدين والمذهب والجيرة. وتذكر بعض المصادر تفاصيل من هذه المعركة وشراستها وكثرة تعداد جيش العدو ووفرة عتادهم، ومحاولتهم العنيدة للاستيلاء على الجزيرة. كما تعرض إلى خسائر الجيش المعتدي في الأنفس والعتاد.

ويذكر إبراهيم أبو اليقظان في ملحقة للسير أن الشيخ باحيو موسى كوّن جيشاً من الصحراء الجزائرية، وقاده للمشاركة في الحرب ضدّ الإسبان لما استولوا على جزيرة جربة عام 927 هـ / 1520م. وقد نظم الشيخ باحيو قصيدة حول وقائع هذه الحرب، أورد منها أبو اليقظان في ملحقة تسعاً وعشرين بيتاً.²¹

ويؤكّد حمو عيسى النوري أن الشيخ باحيو تناول من جملة معاركه مع العدو الإسباني ثلاثاً منها بالتفصيل، غنم فيها أكثر من عشر بواخر حربية، محمّلة بغنائم كثيرة، وافتك من الأسر سبعمائة امرأة كان قد أختطفهنّ العدو لبيعهنّ في سوق الرقيق.³¹

ولما كان أهل بلاد مزاب يتعاملون بقوافلهم التجارية مع البلاد التونسية فقد ارتبطت هيئاتهم بالولاء للإخوة بربروس، بموجب التزام أو اتفاق يكون قد عقد مع آل بربروس بعد إجلاء الإسبان من جربة في 1510م، وذلك حفاظاً على تجارتهم وممتلكاتهم، وحماية لقوافلهم

التجارية التي كانت تنتقل عبر بلاد تونس والجزائر والمغرب وطرابلس وقد وردت في فقرات نص وثيقة اتفاقية الحماية⁴¹ التي أبرمت بعد الاحتلال الفرنسي للأغواط ما يشير إلى ذلك.⁵¹

ولما ذاع صيت الإخوة بربروس في الجهاد البحري بفعل إنقاذ المهاجرين الأندلسيين، ونقلهم إلى بلاد المغرب الكبير، فازدهرت بفضل فنونهم ومهاراتهم البلاد الساحلية التي استقروا بها؛ استنجد أعيان مدن السواحل الجزائرية وعلماءها بآل بربروس وكانت أولى مدينة هي بجاية في سنة 1512م.¹⁶

وحاول أهل بجاية مقاومة العدوان إلا أن الانقسام الذي كانوا عليه وضعف القوة العسكرية دفعاهم إلى التفكير في الاستنجاد والاستعانة بقوة آل بربروس التي ذاع صيتها حينذاك في البحر المتوسط، فشكّل العلماء والأعيان من أهل بجاية وفداً قابل عروج وناشده إنقاذ بجاية من قبضة العدو.¹⁷ وكذلك فعل حاكم قسنطينة أبو بكر الحفصي؛ فقرر عروج الاستجابة لطلب الأعيان الذين اتصلوا به حيث كان يعسكر في حلق الوادي بالسواحل التونسية.¹⁸

في هذا يذكر صاحب الاستقصا: «... وظهر من قوّد عساكرهم البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا، وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برا وبحرا وأوقعا بأهل دول الأوروبا وقائع شهيرة وصار لهم ذكر في أقطار البلاد، وتمكن ناموسهم من قلوب العباد، فكاتبهم الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي الزواوي وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر وقال إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب فأقبل الترك نحوه مسرعين...».¹⁹ ولقد تلقى الأخوان بربروس كذلك مراسلة من حاكم قسنطينة أبي بكر الحفصي ومن كان حوله من الأعيان والعلماء من أهل بجاية، فاتجهت أنظارهما نحو بجاية المحتلة من قبل الإسبان وكان إقليم

من الأهالي، وذلك باستمالة هذه الأخيرة، فأمكن لهم العثور على من يتعاقد معهم لتأمين الإمداد وتموين الحامية الإسبانية.²³

وبعد ثمانية أيام من الحصار والقصف المدفعي أصدر عروج أمر الاقتحام العام لكن قذيفة سقطت على ذراعه الأيسر أوقفت العمليات، وتفرق الجيشان البري والبحري.²⁴ وتراجع خير الدين ونقل أخاه نحو تونس للمعالجة، وقد فقدوا قسما من سفنهم في معركة قاسية مع القائد البحري (دوريا)،²⁵ وترجع أسباب الهزيمة إلى سوء الأحوال الجوية ووصول المدد الإسباني.²⁶

2. - تحرير جيجل ومحاولة تحرير بجاية الثانية:

بعد شفاء عروج من جراحه والهروب من رقابة الملك الحفصي قرر أن يكون له مركز أكثر حماية، فاتجه إلى جربة أولا أين سيمكث عاما كاملا 1513م لإصلاح سفنه وتعويض خسارته وفي 1514م قام بمعية خير الدين، الذي تحمّل مسؤولية الدفاع البحري في غياب عروج، لإعداد مخطط لتحرير جيجل، والاستعداد لتحرير بجاية²⁷ ونظرا للنجاح الذي حققه عروج في جيجل فقد بايعه سكانها أميرا عليهم، واستحثه شيوخ القبائل وأحمد ابن القاضي على إعادة الكرة على الإسبان في بجاية.

أكمل عروج استعداداته وغادر قاعدته الجديدة متجها إلى بجاية في شهر أوت سنة 1514م وهو يقود جيشا، يضم عشرين ألف مجاهد من قبائل المنطقة، ووصل إلى بجاية فأحكم الحصار عليها، واشتبك مع حاميتها التي كانت تحت قيادة (دون راييموند Don Raymond) في معارك قاسية على أمل إنهاء الوجود الإسباني وبالتالي فتح الطريق نحو مدينة الجزائر.²⁸

ولتعزيز قوّته طلب الدعم من قبائل المنطقة ومن أحمد ابن القاضي الذي كوّن معه روابط الصداقة منذ

بجاية مقسما على القبائل المتنفة هناك؛ إذ كان القسم الشرقي منها تحت سيطرة عبد العزيز المقراني وعاصمته بني عباس، أما القسم الغربي فكان تحت نفوذ أحمد ابن القاضي الغبريني، حيث نفوذ مملكة كوكو، وكانت إسبانيا تسعى دائما إلى التحالف معها لتمويل الحامية بالمواد الغذائية.⁰²

1 - المحاولات الأولى لتحرير مدن الجزائر

1. محاولة تحرير بجاية الفاشلة

التحق عروج وخير الدين بنواحي بجاية في 01 أوت 1512م بخمس سفن، واستقرا قريبا من المدينة ليحصلوا على المعلومات الكافية التي تمكنهما من إعداد خطة محكمة لطرد الإسبان.

وعندما اقتربا من ميناء بجاية ظهرت أمامهما خمس عشرة باخرة حربية إسبانية، فقرر خير الدين القيام بمناورة خداعية، فتظاهر بالفرار فانطلق الأسطول الإسباني لمطاردة سفنهما، وعندما ابتعد خير الدين من الميناء وتوغل في البحر تمكن من إغراق باخرة والاستيلاء على أخرى فيما لاذت بقية قطع الأسطول الإسباني بالفرار.²¹

وكان من رأي خير الدين محاصرة المدينة بحرا وترك الأهالي والمتطوعين لمحاصرتها براً وقد شارك أحمد بن القاضي في تنفيذ هذا المشروع وقد كان يقود قبائل الزوات وبني ييراثن (أث ييراثن) وبني فراوسن وقبائل أعالي وادي سباو.²²

غير أن عروج صمّم على النزول بقسم من قواته للقيام بمحوم فوري، فكان هذا إنذارا للإسبان الذين عرفوا أن تلاحم القوى في البر والبحر سيؤدي إلى تعاضم قوة المسلمين، فعملوا فورا على طلب المزيد من الدعم من إسبانيا، وغيّروا بالمقابل سياستهم للفصل بين القوى البحرية للإخوة بربروس والقوى البرية المشكّلة

عدد من الإسبان أيضا، وقد تركز الهجوم الإسلامي على خمس نقاط، حتى تشتت جموع الإسبان، ولم يترك لها فرصة التجمع في مكان واحد. وبعد ثلاثة أشهر من المحاولات، ونتيجة لنقص في التموين والذخيرة، ووصول النجدة الإسبانية لمساعدة الغزاة، قرّر عروج ومن معه رفع الحصار واضطروا للانسحاب.³¹

وعندما حاول الإبحار بسفنه وجد أن منسوب مياه وادي الصومام قد تناقص حتى لم يعد باستطاعة السفن الملاحة فيه،³² كما لم يعد باستطاعة هذه السفن العودة إلى البحر نظرا إلى أن الإسبان كانوا قد حشدوا أسطولا قويا ظلّ يترصد بالسفن حين خروجها من النهر، فأصدر عروج أمرا بإحراق السفن حتى لا تسقط في أيدي الإسبان، وهذا بعد أن استخدم قسما منها لعبور قواته. وعاد عروج عبر البرّ إلى جيجل بعد أن خسر ثلاثة أرباع جيشه فمكث بالمدينة، بينما قصد خير الدين تونس لتعويض ما خسرت قواته وبناء سفن جديدة.³³

2 - التحاق الجزائر بالدولة العثمانية

1. الدعم العثماني واستنجد مدينتي الجزائر وتلمسان

كان عروج بعد تحرير لمدينة جيجل في 1514م، قد أرسل هدية رمزية للسلطان العثماني سليم الأول، وأرفقها برسالة شرح له فيها ما تعرض له هو وأخوه خير الدين من صعوبات في جهادهما المرير لإنقاذ المسلمين والدفاع عن الثغور الإسلامية في المغرب الكبير، فتقبل السلطان سليم الهدية وردّ عليها بإرسال أربع عشرة (14) سفينة محملة بالجنود مع كميات من الأسلحة والذخيرة والتجهيزات، ووصل هذا الدعم إلى قاعدة عروج بجيجل إثر محاولته الثالثة لتحرير بجاية. وبقدوم هذا الدعم أصبح أكثر تصميمًا على إجراء محاولة تحرير جديدة على بجاية؛ فشرع في إعداد السفن والمدافع

المحاولة الأولى، فكانت القبائل بقيادة أحمد بن القاضي تحاصر الإسبان من البر، وشرع عروج في قصف المدينة بمدافع من على متن سفنه، وتمكن من السيطرة على إحدى قلعتي المدينة، لكن مع ذلك استعصت عليه، وظلّ حصاره لها قرابة ثلاثة أشهر، أدرك عروج بعدها صعوبة اقتحام المدينة، فقرر الانسحاب ورفع الحصار والعودة إلى جيجل لقضاء فصل الشتاء وإكمال الاستعدادات.²⁹

3. - المحاولة الثالثة لتحرير بجاية

ولتنفيذ المحاولة الثالثة لتحرير بجاية، تحرّك عروج في مارس 1515م، وقد اعتمد في محاولته هذه على تطويق المدينة بحصار بري وبحري، فقاد قواته برّا، ووجّه في ذات الوقت أسطوله بحرًا، حيث اقتحمت السفن مصبّ وادي الصومام الذي كانت مياهه غزيرة خلال ذلك الفصل من السنة، وهو ما ساعده بإحكام الحصار على المدينة.

أما جيش القبائل بقيادة أحمد بن القاضي فقد قام بالسير إلى غاية مجرى وادي الصومام ليلتقي مع الأسطول البحري، لبدأ حصار المدينة ثم مهاجمتها. وثد تركز الهجوم على معقل القصر الصغير، حتى تم تدميره والقضاء على معظم حاميته.

وحاولت القوات اقتحام المدينة عبر أنقاض القصر الصغير؛ غير أنها اصطدمت بالمواقع المحصنة ومراكز الدفاع القوية، كما فشلت محاولة الهجوم من ناحية البحر. عندها وجّه عروج مدافعه إلى القصر الكبير، وشرع في تركيز القصف عليه، فيما تقدّمت قواته نحوه، واستخدمت المتفجرات والألغام من أجل تدمير الخندق المحيط به وتدمير أسواره.³⁰

ومن أجل ضرب الأسوار بالرمي المباشر، عمل عروج على رفع المدافع إلى التلة المحاذية، ووقعت معارك دموية استشهد فيها عدد كبير من المجاهدين، وقتل

الضخمة ومواد التموين والأسلحة والذخائر التي تكفي لحملة طويلة الأمد.³⁴

وفي الجزائر استنجد الشيخ سالم التومي بعروج من الخطر الإسباني فاستجاب له فاستقبل هو وجيشه بحفاوة كبيرة. وكانت مدينة مزغنة⁵³ مشيخة تحت حكم هيئة بلدية مستقلة كان يرأسها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي. وفي هذه الفترة كان حاكمها الشيخ التومي في تعداد سكاني قدره حوالي ستين ألف نسمة يشكلون جماعات متنوعة من بربر وعرب وأندلسيين ويهود وأوروبيين. وبعد استيلاء القائد الإسباني بيدرو نافارو على الجزر الأربع المقابلة لسواحل مدينة الجزائر، بنى قلعة على إحداها التي كانت تعرف بالبنين (Pénion)، وزوّدها بالمدفعية وأمدّها بمائتي رجل (200) لمراقبة المدينة ورصد تحركات سكانها، وقد تحمّل السكان تلك الحال مدّة تقارب خمس عشرة سنة.⁶³

ثمّ دعاه أهل تلمسان عروج طالبين منه العون ضد السلطان أبي حمّو الثالث حليف الإسبان الذين احتلوا وهران في 1509م، فزحف نحو تلمسان ودخلها دون مقاومة. ثمّ جهّز الإسبان حملة ضدّ عروج لإخراجه من تلمسان وإعادة أبي حمّو الثالث عليها، وأثناء الحصار قتل عروج من قبل فرقة إسبانية أدركته عند واد المالح بعد أن دانت له عدة أقاليم، وخلفه أخوه خير الدين.⁷³

وبعد استشهاد عروج قرر أعيان مدينة الجزائر مبايعة خير الدين بالإجماع خلفا لأخيه، وفي هذه الأثناء كان الاتصال جاريا بين خير الدين ببروس وبعض الأعيان من أهل مزاب بجزائر بني مزغنة، استمرارا للعلاقات التي تأسست في جربة التونسية، كما ذكرنا سابقا،⁸³ وبقي خير الدين ببروس حاكما على مدينة الجزائر، فاستعصت عليه الأمور لما رأى من كثرة المتآمرين عليه من الحفصيين بتونس ومن الأمير الزياني أبي حمّو الثالث بتحريض من الإسبان، هذا بالإضافة إلى الانتفاضات الداخلية التي اندلعت في جهات مختلفة ضد حكم

خير الدين، وأصبحت القلّة من جنوده الذين بقوا غير قادرين على مواجهة العديد من الأعداء في وقت واحد، فقرر خير الدين المغادرة لمتابعة جهاده البحري في مناطق أخرى.³⁹

لكن قبل ذلك خاطب أعيان المدينة قائلا: «إني عزمت السفر إلى حضرة السلطان، وأمنت بلادكم من العدو بما تركت فيكم من جهاد، ومن وصل إليكم من أهل الأندلس، وما تركت عندكم من عدة، من سفن وأسلحة من أجل أن تقوموا بمحاولات جديدة... لقد تركت أكثر من 400 مدفع ولم يكن في بلادكم مدفع واحد... ولم يبق لي الآن شيء أفعله من أجل إسعاد مدينتكم، فقررت أن أغادركم وأترك إلى جانبكم فرقة كافية من المحاربين الأبطال، الذين سيعملون من أجل أن يحترم اسم الجزائر...، وحينما تجدون أنفسكم أمام ضائقة وتبرز أمامكم حالات صعبة وخطيرة استشيروا الفقهاء وهذين القائدين الشجاعين اللذين هم بجناي، أحمد بن القاضي قائد المنطقة الشرقية ومحمد بن علي قائد المنطقة الغربية، وبمساعدهم وبعون الله ستتغلبون على كل العراقيل».⁴⁰

2. خير الدين بين ضغط الميدان وتشبّث السكان

أعلن أعضاء مجلس أعيان مدينة الجزائر عن تمسّكهم بشخص خير الدين، ورفضوا مغادرته البلاد، وعبّروا له عن ولائهم وإخلاصهم بإظهار رضاهم ورغبتهم فيما يقترحه عليهم، فقالوا له: «أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك، ولن نسمح لك بذلك، فالله أمة سيدنا محمد فإن الله يسألك عنهم» ومّا خاطبه به العلماء أيضا قولهم: «أيها الأمير يتعيّن جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها والدبّ عن ضعفاء أهلها، ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو».⁴¹

عنا ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال، وكترس نفسه وماله للجهاد لإرضاء رب العباد، وإعلاء كلمة الله، ومناط آمال سلطتهم العالية... ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي وأنا المذكور، حامل الرسالة سوف يعرض على جلالكم ما في هذه البلاد من الحوادث والسلام». ⁴⁶

3. إرساء الحكم العثماني بالجزائر وبداية الاستقرار

إجابة على الكتابين أرسل السلطان سليم فرمانا يعلن فيه قبوله لعرض أعيان الجزائر وبعث إلى خير الدين بفرمان تعيينه بلقب بايلرباي على الجزائر. كما بعث إليه الخلعة السلطانية، والراية مع 2000 جندي من الإنكشارية، وأذن له بأن يجمع ما يشاء من المتطوعين من الأناضول. ⁷⁴ وأصبح خير الدين القائد الأعلى للقوات البحرية والعسكرية في إقليم الجزائر ممثلاً للسلطان، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم آل عثمان. وأصبح أي اعتداء على الجزائر إنما هو اعتداء على الدولة العثمانية. ⁴⁸

وعلى وقع هجمات جيوش الإمبراطور الإسباني في 925هـ/ أوت 1518م التي جاءت بعد نشوة النصر على جيش بابا عزّوج بتلمسان والقضاء عليه وعلى أخيه إسحاق؛ تصدّى خير الدين للحملة العسكرية على الجزائر التي قادها ملك صقلية هيكو دي مينكادا Hego de Mongada وتمكّن خلالها احتلال كدية الصابون بمرتفعات مدينة الجزائر، وكان الإمبراطور الإسباني يسعى لاستعادة سيطرته على مدينة الجزائر بعد القضاء على نفوذ آل بربروس بتلمسان واستلام رأس الشهيد بابا عزّوج بمدريد. ⁴⁹

وفي هذه الأثناء استدعى خير الدين بربروس وفداً

وأمام تعاضم خطر العدو الإسباني وجد خير الدين الحاجة ماسة إلى دعم الدولة العثمانية، فأقنع أعيان البلد بالانضمام إلى الخلافة العثمانية قائلاً لهم: «رأيت ما وقع بيننا والملاعين الكفار ولا يؤمن عواملهم، وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم سليم» فوافق أهل المدينة على اقتراح خير الدين. ⁴²

وهكذا قبل خير الدين حكم بلاد الجزائر على شرط تطهيرها من عظم شرّه وكثر فساد، فدعا مأموريه أن «تحرّوا الفساد، ولا تزر وزارة وزر أخرى»، محدّثاً من سفك الدماء من غير وجه حق. ⁴³

وتنفيذا للارتباط بطاعة السلطان العثماني كتب أعيان الجزائر كتاباً كما أشار عليهم خير الدين، وكتب هو أيضاً كتاباً آخر وأرسلوا في أكتوبر 1519 وفداً تقلّه أربع سفن إلى السلطان سليم بقيادة رجل اسمه الحاج حسين، ⁴⁴ ووجه خير الدين هدية عظيمة مع الوفد للسلطان من جملة أربع رءوس من كبراء النصارى. فلما رست سفن الجزائريين بمرسى إسطنبول، قابلوا قصر السلطان ونزلوا بهديتهم إلى الصدر الأعظم فأعلم السلطان بقدمهم وبلغ إليه ما جلبوه إليه.

وقد نشر الدكتور عبد الجليل التميمي ترجمة عربية لوثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإسطنبول تحت رقم 6456، وهي رسالة أهالي الجزائر على اختلاف مستوياتهم من القضاة والخطباء والأئمة والتجار والأعيان وكافة السكان، بتاريخ 26 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1519 م، وكان هدف خير الدين ربط مصير الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية. ⁴⁵

وجاء في نص الرسالة ما يلي «... إن أهل مدينة الجزائر هم عبيد السلطان العثماني، ليس لهم أحد سواه، يلجأون إليه في موقفهم الحرج، استماتوا وراء قائدهم المجاهد في سبيل الله عزّوج، إلى أن سقط شهيدا في حصار الإسبان لمدينة تلمسان، وخلفه أخوه المجاهد في سبيل الله خير الدين، وكان له خير خلف، فقد دافع

مواصلاتهم البحري فوقعوا في المكيدة وارتدت قوات كثيرة منهم نحو البحر لمحاولة إنقاذ السفن والقوارب. وهكذا انقسمت قواتهم نصفين، ففتح المجاهدون أبواب المدينة فجأة فانطلقوا يهاجمون الإسبان من كل جهة، فاحتل نظامهم وفقدوا مواصلاتهم ثم شلت حركة قيادتهم فأصبحوا كقطعان الغنم بين أيدي المجاهدين واختلطتهم السيوف من كل جانب وانصب عليهم وابل الرصاص فمات منهم جمع كبير ووصل الباقون منهم إلى الساحل.⁵⁴

وما يلاحظ هنا أن الشيخ توفيق المدني لم يخص المزايين بالذكر، وشملهم بالهوية الجزائرية الجامعة. لكن هو عيسى النوري يضيف أن «ما يرويه التاريخ المتواتر أبا عن جد وما ذكره مؤرخو ذلك العصر ونصوص المخطوطات فيه تفصيل لأهم ما جرى في هذه الواقعة بحيث لا يستشف من ورائه شك.»⁵⁵

وإذا سلّمنا بما اعتمده النوري من روايات شفوية متناقلة جيلا عن جيل،⁵⁶ فإننا لا نعرف المؤرخين الذين يقصدهم ولم نثر بعد على نصوص المخطوطات التي يعينها وذلك ما لم يحدده.

ومنذ 1519م بدأ الإنكشارية يظهرون على الحياة السياسية والعسكرية في الجزائر، ولقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر سواء بدافع نصرة الإخوة في الدين أو بدوافع أخرى مثل البحث عن العمل أو الرغبة في الغنائم.⁵⁷

واستمر تعاون الدولة العلية وحمايتها لإيالة الجزائر، لكن الأطماع الإسبانية بقيت قائمة؛ فبعد أن أخضع الإسبان عرش الزيانين بتلمسان، والحفصيين بتونس استرسلوا في غزوهم للسواحل المغربية بتوجيه ضربة قاضية للجزائر ما دامت وحيدة مقطوعة المدد من الشرق والغرب. فإذا تم النصر خلا الجو لهم في الحوض الغربي من البحر المتوسط وسهل عليهم بعد ذلك حصار فرنسا حليفة العثمانيين⁵⁸

من المزايين القاطنين بالمدينة على رأسهم المجاهد الشيخ باحيو بن موسى وأمين المزايين بمدينة الجزائر بكير بن الحاج محمد بن بكير المليك⁵⁰ ليستشيرهم في الأمر، فأشاروا عليه بالقيام بعملية فدائية لإحباط التحصينات الإسبانية، والتزموا بالقيام بالمهمة، فاختاروا 70 نفرا من الشبان المتطوعين وقرروا خطة يؤخذ فيها العدو على حين غرة، تقضي بحمل السلاح على نعش والسير به إلى المعسكر الإسباني، وفي 24 أوت 1518م ذهبوا بالتهليل والتكبير بصفة المشيعين لجنائز، مخترقين قوات العدو على طول الطريق تحت سمعه وبصره. ولما بلغوا بالجنائز الوهمية المكان المحدد، صلوا عليها إيهاما للعدو، ثم أقدم أحد الفدائيين مخفيا سلاحه الناري تحت لباسه ودخل المعسكر فنسف مستودع السلاح والذخيرة وسقط شهيدا، فالتحم الطرفان وأشعل الفدائيون النار في المعدات الحربية وفي القوارب التي تصل الأسطول الإسباني بالساحل.⁵¹

ولقد أكمل الفرع الذي ظهر في صفوف العدو مراحل المعركة بعد أن فتح المجاهدون أبواب المدينة وهجموا على الحامية الإسبانية التي فرّ قائدها (دون هوقو) مع من بقي من رجاله، وقد سجلت المعركة سقوط شهداء من عناصر المقاومة.⁵²

ويذكر صاحب «حرب الثلاثمائة سنة» هذه الواقعة التي لجأ فيها خير الدين إلى «حيلة حربية غريبة» حيث أرسل جماعة من المجاهدين الجزائريين بكل سرعة إلى ساحل البحر يقدرها المؤرخون بخمسمائة 500 رجل وما كادت الفرقة الفدائية تحلّ بالموقع الذي اتخذته الإسبان معسكرا لهم، والذي لم يتركوا لحراسته إلا عددا قليلا، حتى أخذوا يدمرون المعسكر ويشعلون النار في القوارب التي تصل الأسطول بالبحر، ويهددون سفن الأسطول.⁵³

وكان الإسبان يرون من كدية الصابون تطورات هذه العملية الخطيرة التي كادت أن تقضي على خطّ

يوميا مدينة الجزائر بنيران مدافعها، حتى صار السكان يعيشون في ضيق كبير، وعندئذ قرر بعض مئات من المزابيين رفع هذه الحنة عن المدينة، وقد اقتحمت الحامية هذه المجموعة من المزابيين المسلحين بعد أن تقمصوا زي النساء الجزائريات وقضت على جميع الجنود الإسبان.⁶³ ويذكر داماس روايات شفوية متواترة وثقت أخبارا عن اقتحام رجال مزابيين لحصن الإمبراطور القائم على التلال المشرفة على قصبة الجزائر من جهة الجنوب، سنة 1541م، ومنها شرع الإسبان في قبلة المدينة بمدافعهم مسببة أضرارا مهولة في الأرواح والممتلكات. فعزم بعض الرجال من التجار والحرفيين المزابيين على إنقاذ مدينة الجزائر من هجمات الإسبان، فتوجهوا إلى حاكم المدينة وأفصحوا له عن عزمهم فرحب بالمبادرة ووعدهم بامتيازات ومكافآت.

عمد هؤلاء الشبان المزابيون إلى حيلة، وفق الرواية المشار إليه، مفادها تنكر هؤلاء الفدائيين في لباس نسوة متنقيات بنقاب كالذي تضعه النساء المغربيات،⁶⁴ وغادروا مدينة القصبة من الباب الجديد في موكب متجهين نحو الموقع المقصود. وعندما رأهم الإسبان من مواقعهم، كقوا عن إطلاق النار، ظانين أن سكان المدينة قرروا الاستسلام وطلب الأمان.

تمكن المهاجمون المتسترون من دخول الحصن دون مشقة، وما إن دخل آخرهم باب الحصن حتى انقلبوا فجأة إلى الهجوم الخاطف، فأفرغوا أسلحتهم على رجال الحامية من الإسبان، فكانت معركة رهيبة، أسفرت نهايتها عن مقتل آخر جندي محتل لهذا المركز الحصين، ومصرع العديد من رجال بني مزاب الظافرين.⁶⁵

ويبدو مما سبق أن هذه الجماعة من الجزائريين ليست مجرد عمال نشطين يركون دواليب النشاط الاقتصادي في الجزائر،⁶⁶ بل تعدوا ذلك فوقعوا موقع الثقة من النظام فتشكل ما هو أشبه بالحلف، أو العصبة حسب التعبير الخلدوني، فهذا ناطق باسمهم يصور هذه العلاقة

استغلّ الإسبان مغادرة خير الدين بربروس للجزائر بعد أن استدعاه السلطان سليمان القانوني في 1534م لشغل منصب قبطان داريا في البحرية العثمانية، وكانت الحملة التي أعدها شارل لكان لغزو تونس كبيرة؛ فقد احتوت على أكثر من أربعمئة سفينة، تسعون منها ملكية، وتحمل أربعة وعشرين ألف جندي وخمسة عشر ألف فرس ولم يكن باستطاعة خير الدين مواجهته، وكان من بين الجنود فرسان القديس يوحنا، وكانوا أمام مدينة قرطاجة وسواحل مدينة تونس يوم 16 جوان 1535م ولم تكن القوة التي بين يدي خير الدين كافية لردّ الهجوم فانهمز أمام القوى الغازية التي دفعته نشوة النصر للشروع في الاستعداد مجددا لإخضاع الجزائر.

هذا الاستعداد استغرقت مدته طيلة خمس سنوات، وختمه الدعم المالي الذي جاء من بابا الفاتكان في 1540، واستطاع الإمبراطور أن يستثمره ليؤلّب الشعوب المسيحية على المسلمين حتى أعد جيشا ضخما من المتطوعين، وأسطولا حربيا بلغت قطعه أربعمئة وخمسين قطعة.

وفي الوقت الذي حاول فيه الإمبراطور شارل الخامس ورفيقه أندريا دوريا تنفيذ هجومه على الجزائر في 20 أكتوبر 1541م كان الجزائريون بقيادة حسن آغا⁶⁰ قد أكملوا كل استعداداتهم لمواجهة العدوان، فتصدوا للعدو بكل ما أوتوا من قوة وإيمان، وأمدتهم الله بقوة الرياح والأمواج إلى جانبهم، واضطرب البحر حسب ما تثبتته الروايات بما لم يعهد مثله، مما تسبب في عطب الكثير من سفنهم وانحرافها، وفساد دخيرتهم الحربية. ونجا الملك شارل الخامس، ورجع خائبا بعد حملته الفاشلة، إلى إسبانيا، محلفا وراءه نحو أربعة آلاف قتيل من جيشه، بالإضافة إلى خسائره الفادحة في المعدات الحربية والزاد والخيام.⁶¹

ترك شارل الخامس في قلعة الإمبراطور⁶² حامية تقدر بحوالي ألف (1000) جندي إسباني، وكانت تقذف

آل بربروس الذين انضم إليهم العديد من السكان المحليين والمهاجرين الأندلسيين وشكلوا مجتمعين قوة هامة، وسعوا إلى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. وبالرغم من المكاسب والإنجازات التي حققتها هذه القوة الفتية على الأرض، إلا أن الرهان كان أقوى من إمكاناتها، وأن لعبة الصراع الإقليمي كانت أعنف من قدراتها، وهذا ما كان يفكر فيه الأمير خير الدين بعد فقد أخويه عزّوج وإسحاق في معركتهما ضدّ الإسبان وحلفائهم المحليين، وهو مدّ يد الطاعة والولاء للسلطان العثماني، بالرغم مما يفترض من غلبة الطابع الكارزمية على شخصية الأخوين عزّوج وخير الدين، وهو السبب الراجح، في تقديره، الذي كان وراء مغادرتهم البلاد التونسية، والتحلل من سلطة حاكمها. ولم يكن للأمير خير الدين المعروف بحنكته السياسية من الخيارات أبدع مما اقترحه على أعيان الجزائر وعلمائها، بعدما بترت ذراعه باستشهاد أخويه، وقد جاء الإخوة بربروس أول الأمر بعدما كاتبهم علماء الجزائر ووجهائها طالبين النجدة لبلاد الجزائر التي بقيت على حدّ قول أحدهم «لك (عروج) أو لأخييك (خير الدين) أو للذئب (الإسبان)»، فجاءت النجدة في الحين.

وبنفس الوفاء كاتبوا السلطان معلين «أنّ أهل مدينة الجزائر ليس لهم أحد سواه، (بعد الله) يلجأون إليه» في حالتهم الحرجة، وأنهم وأميرهم «وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي» وجاء المدد من غير تأخير، وأصبح أي اعتداء على الجزائر إنّما هو اعتداء على الدولة العثمانية.

وهكذا نرى أنّ دخول العثمانيين إلى الجزائر لم يكن غزواً أو فتحاً؛ بل هو رغبة عبّر عنها أهل البلاد، فاعتبروهم منقذين، وأصبحت الجزائر بوجودهم ركيزة للجهاد في البحر المتوسط، وكانت حريصة على مدّ نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم المغرب الكبير، والعمل

في رسالة إلى السلطات العسكرية الفرنسية حين يقول: «فتح بنو مزاب على ما نسمع من أوائلنا أنهم دخلوا الجزائر (العاصمة) مع الترك في يوم واحد، فصاروا يخدم (كذا) صنائعهم ويعمرون بلادهم، فنسبت تلك البلاد إلينا كما نسبت إلى الترك، فصار بيننا وبينهم حسن المعاشرة والمحبة العظيمة، فصاروا لا يأمنوا (كذا) في تلك العمالة إلا بني مزاب، ولا نباع عندهم لا بالقليل ولا بالكثير، سلطان عن سلطان، ديوان عن ديوان، لأننا كالجسد الواحد، فمن أراد شرهم أراد شرنا».⁶⁷ ونتيجة لذلك كله أقرت الإيالة العثمانية بالجزائر بفضل هؤلاء فتنازلت لهم عن الإشراف على بعض المرافق العمومية مثل المسالخ والحمامات والرحوات والمخابز بمدينة الجزائر مكافأة لهم ولأحفادهم على هذا العمل البطولي، وقد احترمت الحكام الذين تداولوا على الحكم هذه الامتيازات فبقيت متوارثة بينهم، ولا يزال عدد من الحمامات بالجزائر العاصمة إلى اليوم ملكاً للمزاييين، بالإضافة إلى منحهم صفة العضوية الكاملة والدائمة لأمينهم بمدينة الجزائر لحضور المجالس الاستشارية.⁶⁸

الخاتمة

ومجمل القول أن ضعف المقاومة المحلية وغياب السلطة الزبانية التي انحصرت في مدينتي الجزائر وتلمسان، تلك السلطة التي خضع حكامها للإسبان، كلّ ذلك حال دون صدّ المشروع الإسباني الذي كان يهدف إلى احتلال المنطقة. وللتجاوب مع سكان بجاية وشرق الجزائر من اعتداءات الإسبان، كان ضرورياً من ظهور قوة جديدة تقوم بواجب التضحية والمقاومة وتعيد تنظيم القوى المحلية، آخذة بعين الاعتبار مستجدات التوازن الإقليمي لكسب رهان التحرير.

لقد كانت أولى معالم هذه القوة الجديدة المنتظر منها تغيير قيم المعادلة وأطرافها هي بروز البحارة من

على تخلص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الإسبان حيالهم.

وبالرغم من أنّ بلاد الجزائر شهدت في هذه المرحلة الحساسة مخاض الانتقال السياسي من عهد إلى عهد آخر، وكانت تطبعها الانتفاضات الداخلية التي اندلعت في جهات مختلفة ضدّ حكم عروج ثمّ ضدّ حكم خير الدين؛ لكن التاريخ سجّل لنا أيضا انضمام العديد من السكان والمهاجرين الأندلسيين وقبائل الزوات وبني ييراثن وبني فراوسن وقبائل أعالي وادي سباو، وشكّلوا قوّة بحرية هامّة وأخرى برّية كانتا متعاونتين مع آل بربروس قبل إرساء الحكم العثماني وبعده.

ومن الجماعات الأهلية التي برز دورها مبكراً كذلك جماعة مزاب التي لم تكن مجرد مجموعة من عمّال نشطين حرّكوا دواليب النشاط الاقتصادي في الجزائر، بل تعدّوا ذلك فوقعوا موقع الثقة من النظام فتشكّل ما هو أشبه بالتحالف الصادق الذي وصفه أحدهم بقوله: « لا نباع عندهم لا بالقليل ولا بالكثير، سلطان عن سلطان، ديوان عن ديوان، لأننا كالجسد الواحد، فمن أراد شرهم أراد شرنا».

تلکم هي المقاربة التي أتصوّرها لجزائر الأربعين سنة الأولى من القرن السادس عشر الميلادي، وهي تغادر عهد الزينيين بما فيه من أجماد وأوجاع، وتستقبل عهد العثمانيين الذي سيستمرّ لأزيد من ثلاثة قرون.

الفهرس

أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.س.ن)، الجزائر، ص122

2 د.حسن مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المجلد2، ج 3، ط1 العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص 156.

3 الإخوة بربروس: الذين جاءوا إلى سواحل الجزائر هم عروج وخير الدين وإسحاق، استشهد إسحاق وعروج في البداية، وتولى خير الدين حكم الجزائر سنة 1518م، وتمكن من التغلب على الصعاب بفضل مساعدات الباب العالي، وتعاون الفئة المستنيرة من العلماء والسكان. للمزيد انظر: أحمد بن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ج2، ص 09.

4 سامح عزيز ألت: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر. عامر محمود، ط1، دار النهضة، لبنان، 1998، ص 18.

5 ولد عروج بن يعقوب بن يوسف في حدود 1470 بجزيرة ميدللي هو أحد أربعة إخوة بخارة، اشتركوا في جهاد الصليبيين في بحر إيجه وهناك استشهد إلياس وأسر عروج ووقع في قبضة الصليبيين وسخروه في خدمة فرسان القديس يوحنا وتمكن عروج من التخلّص من الأسر، فعاد إلى الجهاد وتوجه إلى سواحل إسبانيا يقود سفنا ما بين 1501-1510م وتمكن من تشكيل أسطول صغير، وتعاون مع السلطان الحفصي واتخذ جزيرة جربة مركزا لأعماله. ولما توسعت أعماله استولى على مدينة جيحل 1514 وحصّنها واتّخذها مركزا لأعماله ببلاد الجزائر. للمزيد انظر: مجهول، غزوات خير الدين وعروج، تحقيق نور الدين عبد القادر المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934،

ص. 48.

10 أبو النجاة يونس بن سعيد بن يحيى بن تعاريت

الخيري الجربي (ق: 10هـ / 16م). أخذ العلم عن الشيخ أبي القاسم زكرياء بن أفلح الصديغياني، وأبي محمد عبد الله بن أبي القاسم البرادي وعلى الشيخ أبي عفيف صالح بن نوح التندميري. تخرّج على يديه جمع من الأعلام من تونس وليبيا والجزائر، منهم: أبو عثمان سعيد بن علي الجربي التونسي، الذي أرسل لنشر العلم بمزاب بالجزائر، بعد أن أطبق عليه ظلام الجهل. تولى أبو النجاة رئاسة هيئة العزابة في جربة سنة 908هـ/1497م. وكانت له السلطة العليا في شؤون أهل الجزيرة. قاد الجيش الذي صدّ هجوم الإسبان على الجزيرة، وذلك سنة 916هـ/1511م. وقد دحر الجرييون العدوان الإسباني. للمزيد انظر جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، رقم الترجمة: 1082.

11 يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق، ط2،

نشر وزارة الثقافة، الجزائر، 2006، ص. 63.

12 جمعية التراث، معجم أعلام...، المرجع السابق، رقم

الترجمة 175.

13 حمو عيسى النوري، دور الميزابيين قديما وحديثا في

تاريخ الجزائر، ط1، فرنسا، 1984، ج1، ص222-225

14 معاهدة الحماية التي أبرمها أعيان مزاب مع السلطات

العسكرية الفرنسية بالجزائر في 29 افريل 1853.

15 الحاج سعيد، المرجع السابق، ص 56-57.

16 مولود قاسم نایت بلقاسم : شخصية الجزائر

الدولية وهيبتها العالمية (قبل 1830)، ج1، دار الأمة،

الجزائر، ط2، 2007، ص 58.

17 ابن أبي شعيب (المهدي): أم الحواضر في الماضي

والحاضر - تاريخ مدينة قسنطينة - ، مطبعة البعث، الجزائر،

1980، ص 52-54.

6 ولد خير الدين بن يعقوب في حدود 1472 بجزيرة ميدللي بعد أخيه عروج ريس. تولى خير الدين حكم الجزائر بعد استشهاد أخيه عروج. عينه السلطان سليمان القانوني في سنة 1534 قبطان داريا، فقام بإصلاح دار بناء السفن في إسطنبول وأعد أسطولا كبيرا أغار بثمانين قطعة منه على المدن الممتدة على طول الساحل الإيطالي الجنوبي. قاد خير الدين في 1543 أسطولا مكونا من 110 سفينة، استولى به على مدينة نيس في أغسطس من السنة نفسها وهذا بطلب من الملك الفرنسي فرانسوا الأول لمساعدته في حربه ضد أسبانيا. بعد حياة حافلة بالجهاد والغزو توفي خير الدين ببروس في تموز 1546، ودفن في ساحل باشكتاش بإسطنبول. انظر: مجهول، غزوات خير الدين وعروج، المصدر السابق، ص47.

7 أحمد بن أبي الضياف : المصدر السابق، ج2، ص

.09.

8 كان الشيخ باحيو بن موسى (حي في: 916 هـ / 1510م) من أهل الحرب والبيان، أوتي قوة وفصاحة دافع بهما عن الحق. وقد استدعاه خير الدين ببروس إلى قصره، بعد إحساسه بالخطر المحدق بالعاصمة، فكانت له المهمة الرئيسة في تكوين مجموعة من الفدائيين المزابيين، الذين هزموا الإسبان بحيلة بتاريخ 24/9هـ/1518م، أطببت المصادر في ذكر تفاصيلها. للمزيد انظر: جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، رقم الترجمة 175.

9 أبو زكريا يحيى السمويني من مشايخ الحكم بجزيرة جربة بتونس. استعان الشيخ يونس بن سعيد الصديغياني بأسرته لكفائها السياسية والقيادية. قاد معركة ضد الإسبان، بصفته شيخ الجزيرة، عام 916هـ/1510م، أثناء هجومهم على جربة وسواحل المغرب الإسلامي. انظر: جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، رقم الترجمة: 337.

- 18 مولود قاسم نايت بلقاسم: المرجع السابق، ص 58.
- 19 أبو العباس احمد بن خالد سلاوي: استقصا لخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ص 403-404.
- 20 Haedo(diego) : his-toire des rois d'Alger , traduit par grammont(henri-delamas) , revue Africane , N°e24, 1880, p 42-45
- 21 مولود قاسم نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص 59-58.
- 22 مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج 3، المرجع السابق، ص 17.
- 23 ابن أبي شعيب (المهدي): المصدر السابق، ص 53.
- 24 Tahar oussedik : le royaume de khoukhou , ENAL, Alger, 1986, pp 13-14
- 25 Haedo(diego) : Opcit ,p17 .
- 26 كورين شوفاليه : الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1841، تر. جمال حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص 26-27.
- 27 سامح عزيز ألتز: المرجع السابق، ص 48.
- 28 يحيى بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، (الجزائر الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 256 .
- 29 صالح عباد : الجزائر خلال الحكم العثماني 1514-1830، دار هومة للنشر، الجزائر، 2014، ص 45 .
- 30 سامح عزيز ألتز: المرجع السابق، ص 48.
- 31 نفسه، ص 48-49.
- 32 مجهول : غزوات خير الدين وعروج، المصدر السابق، ص 24-25 .
- 33 مبارك الميلي: المرجع السابق، ج 3، ص 37.
- 34 Sander (rang) et Denis (Ferdinand): Fondation de la regence d'Alger; histoire des Barberousse , librairie de l'evêche orientale, 1837, tome 2, pp.57-58.
- 35 كانت تسمى بجزائر بني مزغان في عهد الزيريين حسب ابن حوقل وهي أصل تسمية المدينة في العهد العثماني انظر: العربي ايشبودان، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، ترجمة جناح مسعود، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، 21؛ والنوري، المرجع السابق، ج 1 ص 198.
- 36 C.A.Julien, Histoire de la conquête de l'Algérie, début de la colonisation contemporaine 1827-1871, PUF, Paris, p.253.
- 37 مجهول، غزوات خير الدين وعروج، المصدر السابق، ص 48.
- 38 C.A.Julien, Op.cit, p.253.
- 39 عمار عمورة :الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى غاية 1962، دار المعرفة، الجزائر، ص 64-65.
- 40 أبو العباس احمد بن خالد سلاوي: المصدر السابق، ص 403-404؛ وعلي أحمقوا :« الدولة الجزائرية الأولى (PEA) دراسة مؤسسية »، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 2، جامعة باتنة، الجزائر، 1994، ص 149.

- 41 سامح عزيز ألتز: المرجع السابق، ص 100-106
- 42 جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر (1500-1830)، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، ص 43.
- 43 عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها، ط2، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1986، ص 209-210.
- 44 أبو العباس أحمد بن خالد سلاوي: المصدر السابق، ص 403.
- 45 حلمي محروس إسماعيل: تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 25-26.
- 46 عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، المرجع السابق، ص 48.
- 47 مجهول: غزوات خير الدين وعروج، المصدر السابق، ص 47.
- 48 وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبادية، دار القصيب للنشر، الجزائر، 2006، ص 63.
- 49 مجهول، غزوات خير الدين وعروج، المصدر السابق، ص 47.
- 50 بكير بن الحاج محمد بن بكير المليك من أعيان مليكة بمزاب، كان أمين المزابيين بالجزائر العاصمة، ورئيس جماعتهم. وقد استدعاه خير الدين ببروس إلى قصره في مهمة سياسية وعسكرية. ذكره الشيخ أبو اليقظان في ملحق السير، انظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب الإسلامي، المرجع السابق، رقم الترجمة: 205.
- 51 حمو عيسى النوري، المرجع السابق، ج1، ص 208؛ والحاج سعيد، المرجع السابق، ص 63-64.
- 52 النوري نفسه، ج1، ص 208؛ والحاج سعيد نفسه، ص 63-64.
- 53 أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 207-208.
- 54 نفسه، ص. 207-208
- 55 حمو عيسى النوري، المرجع السابق، ج1، ص 205.
- 56 يعزّز النوري قوله بمقولات متوارثة والتي أدرك بعضها متداولاً بالأسبانية منها: «وارد المورو بورتي لوقندورا دي كولورو» ومعناها: احذر من العربي الذي يلبس عباءة ملونة، والمقصود به المزابي. ولا يزال عناصر الفرق الفولكلورية للبارود بمزاب يلبسون هذه العباءة المزركشة بالألوان... إضافة إلى منح الباشا امتيازات للمزابيين منها: حق الإشراف على مرافق عمومية وحمامات. انظر: نفسه، ص 208
- 57 عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ص. 210.
- 58 E. Ravene, «Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger», in Revue africaine 3et4 ème trim. 1931 p.180.
- 59 مجهول، غزوات...، المصدر السابق، ص. 116-119.
- 60 ولد حسن آغا في 1466م وتوفي في 1560م، أصله من جنوة الإيطالية وهو أشهر حكام الجزائر بعد خير الدين ببروس في القرن السادس عشر للمزيد انظر عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين للجزائر، الجزائر، (د.ت.ن.)، ص 191.

- 61 مجهول، غزوات...، المصدر السابق، ص. 119-121.
- 62 ويطلق عليها اسم برج بوليلة إشارة إلى سرعة إنجازه، ونسب فيما بعد إلى مولاي حسن، وحسب دوماس فإن مولاي حسن هذا مغربي من أقارب مولاي يزيد منح 50 ألف دورو إسباني لإعادة بنائه، فتم بناؤه في ظرف أربع سنوات. انظر: Dumas, Moeurs et Coutumes de l'Algérie. Tell-Kabilye-Sahara. 2ème édition, L.Hachette et Cie, Paris 1855, p.120 ؛ غير أن رواية تنسبه إلى حسن بن خير الدين باشا الذي أعاد بناءه سنة 1573، في الموقع الذي أقام عليه الإمبراطور شارل الخامس مقر قيادته عام 1541 للاستيلاء على مدينة الجزائر. انظر الحاج سعيد، المرجع السابق، ص 93.
- 63 تقول الرواية في تفاصيل الواقعة: « فأرسلوا ذات مساء عددا من النساء الجزائريات إلى باب القلعة ولما وصلن إليه أخذن ينحبن ويصرخن طالبات من رجال الحامية الإسبانية أن يسمحوا لهن بالدخول إلى البطارية وإلا فإنهن سيهلكن لأنهن فررن من سوء معاملة أزواجهن القساة عليهن. فتأثر الإسبان بكائنهن وفتحوا لهن الباب... » انظر: سيمون. بفايفر، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، ترجمة وتقديم وتعليق د. أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 1998، ص. 164.
- 64 وتقول الرواية إنهم حملوا تحت الحياك التي ارتدوها مسدسات مشحونة وخناجر محدودة النصال مستنة الأشفار.
- 65 Daumas (General), Op.Cit., pp 135-137.
- 66 الحاج موسى بن بكير بن عمر: تجار مزاب في دار السلطان خلفيات الحضور الاقتصادي والنفوذ السياسي، دورية الحياة، نشر جمعية التراث، ع. 19، الصادر في رمضان/جويلية 2015.
- 67 ر.م.ش.ع. حواش، ملف Occupation، رقم 1324/18؛ ومجهول، رسالة من أحد أعيان المدينة المزابيين إلى السلطات الفرنسية، غير مؤرخة) يرجح أنها كتبت في أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات من القرن الـ19، ورقتان.
- 68 سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 164؛ والشيخ القرادي المرجع السابق، ص 176.